

على هامش أمموم شهرزاد

٤ - قضية اليوم

للاستاذ دريني خشبة

قالت فاتنة : « الآن يا صديقي وقد أطلعتك على أطراف من شهرزاد الحكيم ، وعلى أطراف من القصر السحور ، ووقفناك على المذهب الذي أخذ الكاتب به نفسه ، ولم يفتأ يباهي به ، ويشتط فيه ... الآن وقد علمت أن مشروع (أحلام شهرزاد) كان وعداً موعوداً في القصر السحور على لسان شهرزاد أراد عميد الأدب العربي أن يزود به عن هذه الشخصية الفذة التي ابتدعها الأديب المبقرى القديم الأول ، والتي روضها إلى جنس المرأة في كل زمان ومكان ... والآن وقد علمت ما يرتأيه الأستاذ توفيق في شهرزاد كل زمان ومكان من غدر وكيد وخيانة وأنانية و... شَبَق ... الآن يحين لي أن أحدثك عن أحلام شهرزاد حديثاً يروقك وتنزع إليه نفسك ، النزاعة إلى الحق ، الشغوفة بالجمال ، المؤمنة بالكمال »

« ليعلم كيف تكون الكتابة عن شهرزاد ! » هل تذكر هذه القولة التي أخذت مكانها في القصر السحور عن عميد ؟ أما تزال تذكر هذه القولة أيضاً ، وقد أخذت مأمنها من هذا الكتاب كما أخذت مأمنها الكلمة السابقة :

« سيجد عندي علم ما لم يعلم من أمر شهرزاد ! »

ها تان كلمتان ! فهل بر العميد فيما وعد ؟ وكيف صور شهرزاده يا ترى ! وكيف جاني بها عما رسمها الأستاذ توفيق ؟ ثم ما بال أبطاله الآخرين ! هل أخرج لنا ملكاً (ديوتاً) كشهريار الحكيم ؟ أم انتفع شهريار العميد بشهرزاده فهذب طبعه النافر ، وأقامت خلقه الموج ، ولفته إلى شئون ملكه يرعاها بعين الخبير البصير ، وعلمته كيف يوائم بين رغبات نفسه ورغبات شعبه ، ثم هي مع هذا وذاك لم تنكشف له كل الانكشاف لتستيق سحرها في قلبه ، وتحفظ بسر الجمال الذي يفضحه التبذل ، ويذبله التهاك في إشباع رغبات الرجال ؟ !

ثم شخصيتي أنا ؟ شخصية فاتنة ؟ تلك الشخصية التي ترى بكل شخصيات القصص العربي في الأدب المصري الحديث ...

أرأيت كيف صورها فأتقن صورتها وأبدعها في أحسن تقويم ؟ وشخصية طهمان بن زهران ملك الجن ؟ ! هل كان هذا المارد الأحمق الذي يجلس على عرش أمة ليفرغ إلى رغبته ودنيا نفسه كما فعل شهريار الحكيم ؟ أم كان ذاك الحاكم البر الحازم الحكيم الرحيم الذي حكم فعدل فأمن على شعبه كما أمن على ملكه ونشأني على خير منهاج يضمن السعادة لقبيله من الجن من بعده ؟ !

ثم شخصية هذا الطائف العجيب الذي كان يستفر بالأحلام إلى شهريار ينبئه بموعد القصص الشهي الرخي الذي ترسله شهرزاد في أحلامها - ما بال هذا الطائف يا ترى ؟

أما شهرزاد الحالة فإنها من غير شك شهرزاد نبيلة كاملة ، قامت بواجبها في تهذيب شهريار على خير وجه ، وقامت بواجبها نحو وطنها على أحسن صورة ، واحتفظت بسحر أنوثتها فلم تقسه بالتبذل ، ثم هي هذا الملاك الحارس الذي أدت وظيفته في الحياة كما ينبغي أن يؤدي كل مخلوق كامل وظيفته في الحياة ... بأخذ بمحظه منها ولا يجور على حقوق الآخرين ... يعرف أن الحياة جد لا لعب ، وهي مع ذاك جد يخفف جفونه لهو قليل يرى ... لهو بالموسيقا التي تهذب الطبع ، والنزل الحلال الذي لا ينحدر إلى أحضان العبيد ، ولا يسف إلى اتخاذ الأخدان ، ولا يسفل إلى أن يكون خداعاً وخيانةً ولغوًا وتأنياً ... شهرزاد العميد هي هذا الملاك الحارس الذي أخذ على عاتقه إصلاح شهرياره في النوم وفي اليقظة ... في النوم بإرجاعه إلى محجة الصواب كلما عاوده دأؤه القديم فسأل عن سر شهرزاد ، وشهرزاد مع ذاك تطلعه على شطر غير يسر من هذا السر ، ثم تحتفظ لنفسها بشطره الآخر ... الشطر الذي يبقى على سحر الأنوثة في المرأة ، ويجعلها شابة دائماً ، جميلة دائماً ، ساحرة دائماً ... لأنها تعطي من نفسها بقدر ، وتهب من ذاتها بمقدار ، فلا تبذل بكثرة البذل ، ولا تمنح كل ما عندها كي تجدها تمنحه طوال الحياة التي تربط الزوجين ... وهي لذلك جديدة كل يوم في عين شهريار ، لأنها تسقيه كل يوم كأساً جديدة ... فإذا سألتها : « ألا تنبئيني آخر الأمر من أنت وماذا تريدن ؟ » ... أجابت : « من أنا ؟ أنا شهرزاد التي أمتعتك بقصصها أعواماً لأنها كانت خائفة منك والتي تمتعك بحبها الآن لأنها واثقة بك مطمئنة إليك . وماذا أريد ! أريد أن أرى مولاي الملك راضياً سفيداً ناعماً البال رخي العيش مبتسماً للحياة كما تنقسم له الحياة » فإذا أعاد بعد ذلك

سؤاله ، قالت له : « من أنا ؟ أنا شهرزاد التي أحبتك قبل أن تعرفك كما لم تحب فتاة رجلاً قط ، والتي خافتك حين عرفتك خوفاً لم يخفه إنسان إنساناً قط ، والتي زفت إليك تتحدى الموت وتتحدى السلطان وتتحدى الحب والبغض جميعاً ، فبلغت من نفسك هذه المنزلة التي تراها والتي لا تراها ، ثم أصبحت الآن وهي لا تفكر إلا فيك ، ولا تفكر إلا بك ، ولا تفكر إلا لك . ماذا أريد ؟ أريد أن تكون سعيداً موفوراً ، ولكنني لا أعرف كيف أجعلك سعيداً موفوراً . من أنا ؟ ... أنا من تحب أن ترى في أي ساعة من ساعات النهار ، وفي أي ساعة من ساعات الليل . أنا أملك حين تحتاج إلى حنان الأم ، وأنا أختك حين تحتاج إلى مودة الأخت ، وأنا ابنتك حين تحتاج إلى بر البنت ، وأنا زوجك حين تحتاج إلى عطف الزوج ... وأنا خليلتك حين تحتاج إلى مراح الخلية ، أنا كل هذا . وماذا أريد ! أريد ما تريده الأم لابنها ، وما تريده الأخت لأخيها ، وما تريده البنت لأبيها ، وما تريده الزوج لزوجها الوفي ، وما تريده المشيقة لعشيقتها المفتون . وقد سألتني فأخفت على في السؤال ، أفتأذن لي في أن أسألك ؟ » فرفع الملك إليها بصره كالمنكر لما تقول ، ولكنها تتضحك وتهاجن وتساله : « كيف أراك في هذا المكان من جنة القصر ، حيث كان ينبغي أن أراك في غرفتك تنهياً للخروج إلى حيث تستقبل وزراءك وتصرف أمور ملكك ، أو أراك قد خرجت مبكراً فأقبلت على شئون الدولة تصرفها حفيظاً بها منكباً عليها ... الخ »

فهل رأيت إلى شهرزاد العميد وفرق ما بينها وبين شهرزاد الحكيم ؟ أرايت كيف صور العميد ما ينبغي أن تكون عليه الزوجة الوفية في كل زمان ومكان !! فتكون لزوجها أما حين يحتاج إلى حنان الأم ، وأختاً حين يحتاج إلى مودة الأخت ، وابنة حين يحتاج إلى بر البنت ، وزوجاً حين يحتاج إلى عطف الزوج ... ثم ... خلية حين يحتاج إلى مراح الخلية . يجب أن تكون الزوج كل هذا فهل يرى الأستاذ توفيق هذا الرأي ؟ أم هو موجس ظنين واجد على المرأة يبشر ضدها بالويل والثبور وعظائم الأمور ، لا يأتمنها على أن تنجب لشهریار غلاماً ذكياً أو غيباً ، ولذلك فهو يرسلها في أحضان العبيد ، ويبيع غرامها للوزير ولغير الوزير ، ويجعلها أمانة لا تفكر إلا في نجاتها هي دون أن تمنى بخلاص بنات جنسها

ولقد نهيتك يا صديق إلى ما التزمته شهرزاد العميد من الغموض أحياناً لتصون جمالها وتجدد سحرها في نفس زوجها ، فهل تدري لماذا حرص الأستاذ الحكيم على أن تكون شهرزاده غامضة ؟ إنه حرص على هذا لتذهل شهرزاده لب شهریاره ، ولتصد بقلبه ؛ فغموضها هو من غموض السحراء والمسيبين وأكلة الثمايين والذين يمشون بأرجل حافية على النار ورؤوس المسامير ... لأن الذين يتفرجون بهذه الشعبذات يقفون حيالها مشدوهاً وسامعين لما فيها من غموض يذهل ألبابهم ، ولا يدركون له كنهها ... أما ماذا وراء هذا الغموض ، فليس وراءه شيء ... ليس وراءه نفع قط ... إن لم يكن وراءه ما يمكن كالأنفى الرقطاء في ظلمات نفس شهرزاد - شهرزاد الحكيم طبعاً - من شر وكيد وختل وخداع وخيانة وتدبير سيئ ... ولهذا قالت شهرزاد في القصر المسحور وهي تتميز من الغيظ على توفيق الحكيم : « ليعلمن كيف تكون الكتابة عن شهرزاد ! » ثم قالت : « سيأتيه علم ما لم يعلم من أمر شهرزاد ! »

هذا فرق ما بين الغموضين ، وللغموض نصيب عظيم من السرقة الذي أرجف به المرجفون ، ونحترس به المتحترسون أما فرق ما بين شهریار الحكيم وشهریار العميد فليس يحتاج إلى إسهاب ولا يفتقر إلى إطناب . وحسبك أن تذكر ما كان من غفلة شهریار الحكيم التي سماها معرفة ، وسكوته على ما قتل بسببه وزيره نفسه حينما أنسل العبد من مخدع شهرزاد . ذلك السكوت الذي سماه الحكيم فلسفة . ثم حسبك أن تعلم ما كان من سهر شهریار العميد على أمور رعيته ، وحسن التفاته إلى تصرف أمورها ، واضطلاعها بما يعود عليها بالخير والنظام ...

حسبك هذا وذاك لتقدر أنت فرق ما بين الملكين أما أنا ... أما فاتنة ... فاني كما علمت أربع شخصيات الأدب المصري الحديث ... إلى أنتم شخصية شهرزاد . بل أنا روحها الحالم ... بل أنا شبوحها الهائم ... بل أنا غناؤها الباغم . بل أنا منطقها السليم وسحرها العظيم وتديرها الكريم وقلها الرحيم ... بل أنا حديتها على الرعية ، واستخفافها بالطغاة ، وعذابها المسلط على الملوك المستبدن الذين ذاق بعضهم بأس بعض ، وعذب بعضهم بأبدى بعضهم الآخرين ... بل أنا هذه الديمقراطية العززة التي أجاج لها الطغاة الآثمون تلك الحرب الطاغية الآثمة القائمة ... الديمقراطية التي ترد الصواب إلى الفرد

« ... وردت إلى شعوب الجن حقوقها المفصولة وحراباتها المملوكة ... ومن يدري ! لعل علم الجن أن يصل إلى الناس ذات يوم أو ذات قرن واضحاً جليلاً لا لبس فيه ولا غموض ؛ أو لعل عقول الناس أن ترتقي ذات يوم أو ذات قرن إلى حيث تفهم عن الجن في غير مشقة ولا جهد . يومئذ أو قرئذ تصلح أمور الإنسان كما صلحت أمور الجان »

قالت : « وعكف شهريار على نفسه يتدبر ما سمع ويستحضر ما شهد ويتذكر ما رأى ، وكأنه أنسى نفسه في هذا المكوف ، حتى أقبلت شهرزاد وقد ارتفع النهار . وسمعتها تقول في صوت حازم باسم معاً : « لشد ما هانت عليك أمور الملك يا مولاي ! ها أنت ذا تخلو إلى نفسك في زاوية من زوايا غرفتك كأنك فرد من أفراد الناس قد فرغ للفلسفة والتفكير . ألم تحاسب نفسك على هذا الوقت الطويل الذي أنفقته في غير شئون الملك ! ألم يخطر لك أن للشعب حقوقاً يجب أن تؤدي إليه ، وإن أوقات الملك ليست خاصة لهم من دون الرعية ؟ »

قال الملك دهشاً ... « يا عجيباً ! كأنما أسمع حديث فائنة »
قالت شهرزاد ذاهلة : « فائنة ! فائنة ! ليس هذا الاسم على غريباً ، وأحسب أن لي بي عهداً قريباً »

قالت فائنة : « فأنا إذن أنتم شخصية شهرزاد ... بل أنا روحها الحالم . بل أنا شبحها الهائم . بل أنا غناؤها الباغم . بل أنا منطقها السليم ، وسحرها العظيم . وتذيرها الكريم . وقلوبها الرحيم »
أما أبي مسموماً طهمان بن زهان ، فهو الذي أدبني فأحسن تأديبي ، وهو الذي كان يحقق قلبه بمحبة شعبه فنشر المدارس بين طبقاته ليعلمه الديمقراطية . وهو الذي « رفع بعض النابهين من الدهاء إلى مناصب الدولة » معرضاً نفسه لخطب الأمراء وكيد الشيوخ من رؤساء العشائر ، فوصل من الديمقراطية إلى كثير مما كان يريد ...

فشهرزاد وأبي طهمان وأنا ... إنما نكون هذا الثالث المقدس الذي ألّفه العميد لتهديب روح شهريار ، ولإيقاظ هذا الروح من البرم والتوجس والتشاؤم الأسود الذي عصف به منذ خاتمة زوجه . وقد نجحنا في هذا ، وبلغنا منه ما نريد »

قالت فائنة : « فأسأل المرجفين إذن أين هو السرقة الذي يدعونه ؟ بل أين أوجه الشبه بين كل ؟ أيكفي أن يسأل شهريار

الفرور ، وتميد السلام إلى العالم ، الجال إلى الجنة ... أنا الديمقراطية التي تبث العزة في نفوس الأفراد ، والكرامة في قلوب الشعوب ، فلا يسمعها الحاكمون بأمرهم الخسف ، ولا يسلط عليها فرد واحد مجنون فيجمل أمنها خوفاً ، وقوتها ضعفاً ، وعيشها شظفاً ، وجهودها هباء ، ورخاءها عناء ، وفرجها شدة ، وسلامها حرباً ، وعيشها شرّاً ، وعلماءها أبالسة ، وقادتها أفاكين »

إستمع إلى أقول لأبي وهو يحاورني : « ... متى رأيت الملوك يقدمون على حرب لا تدفعهم إليها شهواتهم الجامحة وعواطفهم الحائرة ؟ ومتى رأيت الشعوب تجنب هذه الأحوال وتعم من الحرب لتغير مصالحها المؤكدة ومنافعها المحققة ... ؟ »
إن أثره الملوك والسادة والزعما هي التي تثير الحرب دائماً وهي التي ترهق الشعوب دائماً ... !

فإذا قال لي أبي : « فقد كنت أرجو أن يهيء لك علمك وحكمتك ابتكار لون من ألوان الحياة لا تشق فيه الشعوب بسعادة الملوك والزعما .. » قلت له في بعض الذي أجبت به : « فأبني يا أبت ما بال هذه الرعية لا ترفق بنفسها ولا تعني بأمرها ، ولا تفكر في مصالحها ، وإنما ندعوها فتجيب ، ونأمرها فتطيع ، ونوجهها إلى حيث نشاء فتنتج إلى حيث نشاء لا يخطر لها أن تأتي إذا بلغها الدعاء ، ولا أن تعصي إذا صدر إليها الأمر ، ولا أن تمتنع إذا وجهت إلى حيث لا تحب ... ؟ فما طاعتنا لنا في غير روية ولا تفكير ، بل في غير فهم لما نؤمر به وتقدير لما ندعى إليه ؟ ... »

أرأيت إلى كيف مثلت الديمقراطية أروع تمثيل وأصدق ؟ وهل سمت إلى أفصح الطماعة والمستبدين ، وأخذ على الأمم المستضعفة رضوخها لهم وعدم الثورة عليهم ، وطاعتها لإمام في غير روية ولا تفكير ولا فهم ولا تقدير ؟ ... وأنا مع ذلك الديمقراطية المتعلمة الثقافة التي لا تصدّر عن الطيش ولا يتلاعب بها الرعاع . وليست هذه الديمقراطية التي تدخن القنب في حانة أبي ميسور ، وتنام في أحضان العبيد ، وترهن السيف لتقضي ليلة هائلة ؛ لكنها الديمقراطية التي تثقل عروش المستبدين وتقوم على الجد ولا ترضى العبث وترفض أحلام رواد الخانات التي يدخن فيها ... الديمقراطية التي انتصرت على قوات الشر